معين الطاهر*

سرايا الجهاد في فلسطين: الحكاية التي لم تُروَ

الزمان: ١٩٨٨/٢/١٤.
المكان: ليماسول ـ جزيرة قبرص.
مجموعات من الموساد والوحدات الخاصه الصهيونية وصلت إلى جزيرة قبرص في مهمة محددة هي تفجير سفينة العودة المستعدة للإبحار في اتجاه حيفا، محملة بعشرات الفلسطينيين والمتضامنين الأجانب الذين إنما كانوا يريدون تأكيد الحق في العودة إلى فلسطين. غير أن ثمة طارئاً حدث، إذ رصدت وحدات الموساد وجود حمدي التميمي وأبو حسن قاسم في ضيافة مروان كيالي المقيم في قبرص، والذي كان يشرف منها على الأوضاع في لبنان. اتصل رئيس الموساد برئيس الحكومة الإسرائيلية يتسحاق شمير مستئذناً في تغيير هدف العملية، ذلك بأن هؤلاء كانوا قد احتلوا منذ مدة الرقم واحد في لائحة المطلوبين للموساد الإسرائيلي. وحذّر رئيس الموساد من أن اغتيالهم قد يمنع تفجير الباخرة في ميناء ليماسول، لكن ردّ رئيس الحكومة جاء قاطعاً، الأولوية لعملية الاغتيال، أمّا الباخرة فبإمكاننا اعتراضها على طول الطريق من ليماسول إلى حيفا.

خرج الثلاثة صباحاً في سيارة مروان "الفولكس واغن" إلى أحد المقاهي حيث مكثوا ساعتين تقريباً، وفي طريق العودة إلى المنزل، تم تفجير السيارة عن بعد، فاستشهد حمدي وأبو حسن قاسم ومروان فوراً.

قبرص كانت في عطلة رسمية ومشغولة بعيدها الوطني وعيد الحب، وقد أتاح بطء ردة الفعل القبرصية لوحدات الموساد لاحقاً فرصة تفجير سفينة العودة أيضاً على رصيف ميناء ليماسول. وخرجت الصحف في صباح اليوم التالي تتحدث عن تفجير السفينة واغتيال أولئك الذين كانوا يشرفون عليها.

الرابط الوحيد بين العمليتين كان في

ملصق نعي الشهداء الثلاثة

* قائد "الكتيبة الطلابية" في حركة "فتح".

قيام العدو الصهيوني بتنفيذهما. قطعاً لم يكن للشهداء الثلاثة أي دور في التخطيط أو الإشراف على سفينة العودة، فما الذي دفع العدو الصهيوني إلى إعطاء الأولوية لاغتيال الشهداء الثلاثة، حتى لو أدى ذلك إلى إبحار سفينة العودة في اتجاه الساحل الفلسطيني، حيث تصبح مهمة اعتراضها أصعب وذات تبعات أكبر؟ وما هي قصة الشهداء الثلاثة، بل ما هي قصة سرايا الجهاد في فلسطين التي كانوا قادتها ومؤسسيها؟ هذه القصة هي التي لم تُحكَ بعد، وهي القصة التي كانت حقيقتها في طي الكتمان، الأمر الذي جعلها عرضة لاجتهادات متنوعة: فتارة تُنسب نشاطاتها إلى حركة "فتح"، وتارة أُخرى إلى حركة الجهاد الإسلامي، وفي الحالتين يتم القفز عن مرحلة أساسية في تاريخ المقاومة في فلسطين: كيف بدأت ولماذا انتهت؟ وهذا ما ستحاول هذه الشهادة الإجابة عنه.

الشهداء الثلاثة

يتحدر الشهيد أبو حسن قاسم (محمد بحيص) من قرية يطا في منطقة الخليل، وقد تخرّج من جامعة القاهرة في سنة ١٩٦٦ ليعمل بعض الوقت في البنك العربي قبل أن يتفرغ للعمل الثوري في صفوف حركة "فتح"، وكان ضمن أول دورة أمنية عسكرية تتلقى تدريبها في مصر بعد حرب ١٩٦٧. في سنة ١٩٧١ اختاره الشهيد كمال عدوان كي يكون ضابطاً لعمليات الأرض المحتلة، كما أسند إليه مهمة تأسيس قسم المعلومات في القطاع الغربي، ولاحقاً قام مع الشهيد حمدي بتأسيس لجنة التنظيم ٧٧.

عُرف عن أبو حسن قاسم قيادته الميدانية، علاوة على تميّزه الفكري وثقافته الواسعة، وقد أشرف بنفسه، وبمشاركة من حمدي والشهيد الحاج حسن، على عبور عدد كبير من الدوريات المقاتلة في اتجاه الأرض المحتلة. وكان يشاهَد يوماً في بيروت أو دمشق، لنتفاجأ به، في اليوم التالي، وقد عبر الحدود الأردنية ـ السورية تسللاً، وأصبح في غور الأردن على حدود فلسطين، حيث ينجح في إقامة قواعد ارتكاز سرية لتسهيل عبور الدوريات إلى الداخل الفلسطيني.

ومن أبرز العمليات التي أشرف عليها أبو حسن في المرحلة الأولى، وقبل تأسيس سرايا الجهاد، كانت عملية الدبويا في الخليل، والتي نفذتها دورية مقاتلة استقرت في الأرض المحتلة لأكثر من عام بالتعاون مع الخلايا المقيمة في الداخل. بإيجاز يمكن القول إن اسمَي أبو حسن وحمدي ارتبطا بالإنجازات الكبرى داخل الأرض المحتلة، على أن سمة أبو حسن الأبرز كانت في مساهمته في تأسيس تيار مع حمدي ومروان ورفاق لهما، مستلهمين تجربة ماوتسي تونغ وهوشي منه في "حرب الشعب"، وعُرف باسم "خط الجماهير". ويُعتبر

الشهيد أبو حسن

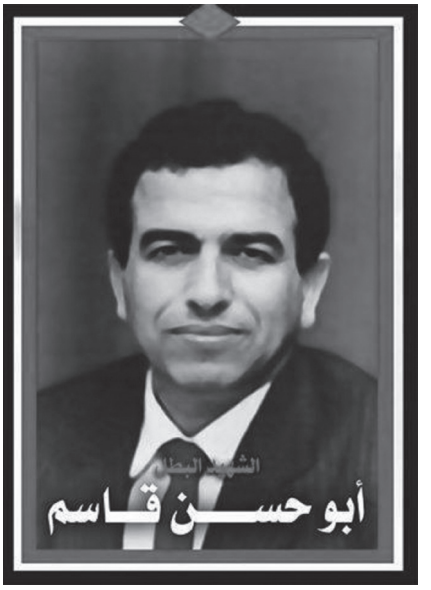

أبو حسن قاسم القائد الفعلي لهذا التيار الذي ضم في صفوفه الكتيبة الطلابية، واللجان الوطنية في لبنان، والمئات من المناضلين الفلسطينيين والعرب.

بينما كان أبو حسن يلتحق بحركة "فتح" في الأردن، كان الشهيد حمدي (محمد باسم سلطان التميمي) المولود في الخليل يتعرض للاعتقال من طرف السلطات الصهيونية ليكون أصغر معتقل في سجون الاحتلال بتهمة مساعدة دوريات الفدائيين المطاردين في منطقة الخليل. وبعد الإفراج عنه استأنف حمدي نشاطه مرة أُخرى ضمن مجموعة من "فتح"، وعندما اعتقل الاحتلال بعض أفراد مجموعته، غادر الأرض المحتلة ليصبح من قادة القطاع الغربي في الحركة، وتوأم أبو حسن الدائم وشريكه في المهمات النضالية في لبنان وسورية والأردن. جُرح حمدي في بداية الحرب الأهلية في لبنان برصاصة في صدره كادت تلامس القلب، وقبل أن يُشفى، انتقل إلى سورية لمتابعة عمله في الأرض

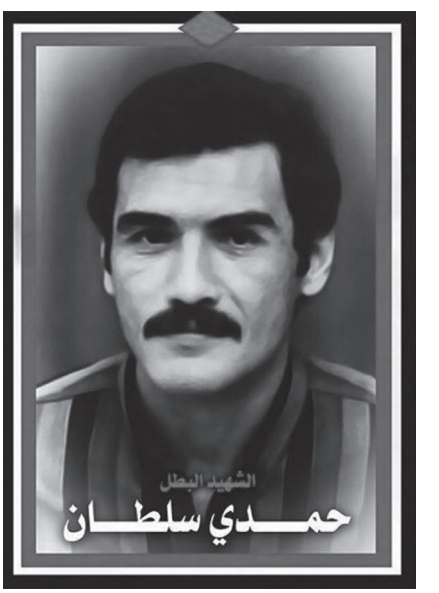

الشهيد حمدي

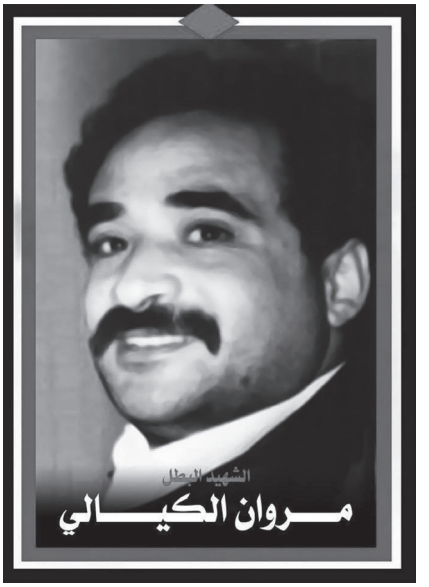

الشهيد مروان

المحتلة ليتم اعتقاله من جانب النظام السوري. كما عرفته السجون الأردنية عندما اعتُقل مع إحدى الدوريات المقاتلة العابرة في اتجاه الأرض المحتلة.

مروان إبراهيم الكيالي من أصول يافاوية لأب فلسطيني وأم لبنانية. عرفته الجامعة اللبنانية قائداً من قادة الحركة الطلابية فيها، وإليه وإلى إخوانه ورفاقه يُعزى الفضل في تأسيس الجبهة الوطنية الطالبية في الجامعات اللبنانية، والتي رسّخت منهج أولوية النضال الوطني للدفاع عن الجنوب اللبناني، والوقوف في وجه الاعتداءات الإسرائيلية على لبنان، وحماية الثورة الفلسطينية. وعند اندلاع الحرب الأهلية كان قد أصبح من قادة الكتيبة الطلابية (الجرمق)، لكنه اختار حينها الالتحاق بقوات العاصفة، وتلقّى دورات عسكرية متقدمة في الاتحاد السوفياتي، بعد أن كان هو ورفاقه قد تعلموا الحرب عبر ممارستها. وبعد اجتياح ١٩٨٢ أضاف مروان إلى رصيده

القتالي السابق في بنت جبيل والشقيف، إشرافه على عشرات العمليات خلف خطوط القوات الصهيونية مع رفيق دربه علي أبو طوق وإخوانهما. وبعد الخروج من طرابلس، اختير مروان عضواً في لجنة لبنان في حركة "فتح"، الأمر الذي تطلّب منه الإقامة في قبرص للإشراف على الاتصال بالمخيمات الفلسطينية في لبنان، وترتيب عودة المقاتلين من المنافي إليها.

اليسار في إطار "فتح"

في منتصف سبعينيات القرن العشرين، وفي خضم النقاشات والحوارات التي دارت بين الأوساط اليسارية في حركة "فتح" وفي فصائل الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، تميز تيار يساري عن باقي التيارات الأُخرى بأطروحاته النظرية وممارسته العملية. فعلى المستوى النظري استلهم هذا التيار التجربتين الصينية والفييتنامية في "حرب الشعب"، ودعا إلى تغليب التناقض الرئيسي مع العدو الصهيوني على التناقضات الثانوية، وبناء أوسع جبهة وطنية، وتأييد التضامن العربي في مواجهة العدو. كما رفض شعارات عزل الكتائب ودعاوى التقسيم في لبنان، ونادى بوحدة جميع القوى الوطنية ـ بما فيها القوى التقليدية ـ لضمان دحر التقسيم وحماية الثورة ووحدة لبنان ووقف الاقتتال الفلسطيني ـ السوري. وعلى المستوى الدولي نادى بعدم الانجذاب إلى المحاور الدولية، محذراً من الوقوع في استقطاباتها، الأمر الذي دفع مناوئيه إلى اتهامه بالماوية. أمّا على المستوى الجماهيري فكان لصيقاً بالجماهير ومحافظاً على قيمها وثقافتها العربية الإسلامية، وقد أطلق البعض على هذا التيار اسم "خط الشعب"، أو "خط الجماهير".

أمّا على المستوى العملي فاختار هذا التيار أن يرابط في الموقع الأصعب، رابطاً النظرية بالممارسة العملية، ومشاركاً بفاعلية في الدفاع عن الثورة الفلسطينية والجماهير اللبنانية خلال الحرب الأهلية اللبنانية التي كان يدعو بشكل دائم إلى الوصول إلى حل توافقي بشأنها، لكنه كان شديد الصلابة في القتال دفاعاً عن المناطق الوطنية من خلال السرية الطلابية واللجان الوطنية. وشكّل انتقاله إلى الجنوب اللبناني التزاماً منه بمواصلة النهج ذاته، وربطه بالنضال داخل الأرض المحتلة عبر استمرار محاولة إرسال الدوريات القتالية إلى داخل فلسطين.

ولعلّي أذكر هنا أن عدة كادرات في الكتيبة الطلابية توجهت عبر الأراضي السورية والأردنية في دوريات قتالية في اتجاه الأرض المحتلة، وقد نجح بعضها، بينما اعتُقل عناصرها في بعضها الآخر.

وحققت أجنحة التيار (الكتيبة ولجنة الـ ٧٧ واللجان الوطنية) إنجازات متميزة في مواجهة العدو الصهيوني والدفاع عن الثورة كما حدث في بنت جبيل ومارون الراس (١٩٧٨)، وقلعة الشقيف (١٩٨٢)، والعمليات المستمرة خلف خطوط العدو، والدفاع عن الثورة في البقاع وطرابلس، والمساهمة في معركة تحرير الجبل. كما نجحت في عدة عمليات متميزة في داخل الأرض المحتلة أبرزها عملية الدبويا في الخليل ودورية التياسير وعملية باص القدس رقم ١٨، وعشرات غيرها.

نحو الإسلام الثوري

جاء انتصار الثورة الإسلامية في إيران في مطلع سنة ١٩٧٩ كي يعزز بعض المفاهيم السائدة لدينا، ويمنحنا شعوراً

بأن موازين القوى في المنطقة توشك أن تتغير بذهاب الشاه حليف إسرائيل، وحضور الإسلام الثوري بطاقاته وإمكاناته الكبيرة التي من الممكن أن تساهم في إحداث هذا التغيير الجذري عبر إضافة هذه الطاقات الثورية إلى الصراع مع العدو الصهيوني.

غير أن منظومة القيم لدينا لم تتغير أو تختلف كونها أساساً ملتصقة بالثقافة العربية الإسلامية، أمّا المنسوب الإيماني بالمعني العقيدي فبدأ يتبلور مع مرور الأيام لدى كثير من الإخوة، إلاّ إن العامل الأهم في تلك المرحلة، كان في إعادة اكتشاف الإسلام كطاقة ثورية كبيرة يمكن أن تساهم في عملية التحرير.

لماذا السرايا؟

بعد الخروج من بيروت كان هناك اتجاه عام بضرورة تكثيف العمل داخل الأرض المحتلة للتعويض عن فقدان الثورة الفلسطينية موقعها في لبنان. وفي بداية سنة ١٩٨٣، استحوذت على الشهيدَين حمدي وأبو حسن قاسم فكرة استقطاب قطاعات جديدة للمساهمة في الكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني، وتابعا بقلق محاولات العدو الصهيوني في داخل الأرض المحتلة لإيقاع الفتنة بين التيارات الوطنية والإسلامية، وإيجاد شرخ دائم بينها.

بعد حرب ١٩٦٧ والانطلاقة الثانية لحركة "فتح"، لم يشأ الإخوان المسلمون أو أي من التيارات الإسلامية تأسيس فصيل فدائي على غرار ما سعت له أغلبية التيارات السياسية في ذلك الوقت، وإنما اتفقوا مع قيادة "فتح" على تأسيس مجموعة قواعد في القطاعَين الأوسط والشمالي في الأردن تضم العناصر الإسلامية الراغبة في الانضمام إلى العمل المسلح، وعُرفت باسم قواعد الشيوخ، وأبلت بلاء حسناً في القتال ضد العدو الصهيوني. وكان من قادة هذه القواعد كل من الدكتور عبد الله عزام والدكتور أحمد

الخروج من بيروت في سنة ١٩٨٢

نوفل والشيخ ذيب أنيس والشيخ حامد ناصر وأبو شهاب وأبو طالب. لكن تجربة قواعد الشيوخ توقفت لدى اندلاع أحداث أيلول / سبتمبر ١٩٧٠ وخروج الثورة من الأردن، ومعها توقفت مشاركة الإسلاميين في الكفاح المسلح الفلسطيني.

لاحظ أبو حسن وحمدي ومروان أن هناك العديد من الإخوة المستقلين الراغبين في الجهاد في فلسطين، لكن كان لديهم قناعاتهم الخاصة بشأن تجربة الثورة الفلسطينية أو أفكارها، أو أنهم يؤمنون بأن عليهم أن يقاتلوا تحت راية إسلامية. كما لاحظوا أن هنالك بدايات لتشكّل مجموعات إسلامية ذات نفس جهادي مثل الجماعة الإسلامية في غزة، والتي عُرفت لاحقاً باسم حركة الجهاد الإسلامي، أو الجماعة الإسلامية المجاهدة في لبنان بقيادة الشيخ إبراهيم غنيم، كذلك بعض المجموعات ذات الانتماء التنظيمي إلى جماعة الإخوان المسلمين، وأن هذه الجماعات ترنو جميعها إلى ممارسة أشكال متنوعة من الجهاد على أرض فلسطين.

وكانت تجربة انتصار الثورة الإسلامية في إيران لا تزال ماثلة في الذهن، كذلك بداية ظهور المقاومة الإسلامية وتطورها في لبنان.

ضمن هذه الأجواء، ومنذ سنة ١٩٨٣، بدأت فكرة سرايا الجهاد في فلسطين تتبلور وتتشكل، واستهدفت في سياق تأسيسها أفراداً ومجموعات، مستلهمة فكرة قواعد الشيوخ التي شارك عدد ممّن كانوا فيها في إطلاق هذا المشروع، كما ساهم فيه مع مرور الأيام عدد من الشخصيات الإسلامية المستقلة.

ونجحت سرايا الجهاد في القيام بعدة عمليات نوعية داخل الكيان الصهيوني، وقامت بتدريب عدد من الكوادر والمجموعات الأولى من حركة "حماس"، واتصلت بالشهيد مصباح الصوري الذي هرب مع رفاقه من سجن غزة، وأرسل رسالة إلى الشهيد حمدي الذي بادر على الفور إلى الرد عليها ومتابعة المجموعة وتسليحها، وهي المجموعة التي اعتُبر استشهاد أبطالها أحد أسباب الانتفاضة الأولى. لكن السرايا لم تكن تنظيماً، ولم تهدف يوماً إلى أن تكون إضافة تنظيمية إلى الفصائل الراهنة، وإنما اعتبر الإخوة الشهداء أن هدفها يتمثل في الزجّ بقطاعات أوسع من الشعب الفلسطيني في الكفاح المسلح، وأن مهمة السرايا الأولى هي التدريب والتسليح، ونقل الخبرة المتراكمة إلى جيل جديد بهدف تصعيد النضال ضد العدو وبناء أوسع جبهة ضده. كما لم تكن جزءاً من "فتح" أو امتداداً لها أو انشقاقاً عنها، وفي الوقت ذاته لم تكن جناحاً عسكرياً لأي من التنظيمات الإسلامية، كما هو شائع.

إن الكلام على بعض عمليات السرايا ربما يلقي ضوءاً أكبر على هذه التجربة، وينير بعض الزوايا التي لا تزال مجهولة للعامة.

١ ـ عملية حائط البراق (باب المغاربة)

اعتادت وحدات النخبة في الجيش الإسرائيلي إقامة احتفال أداء القسم للضباط وصفّ الضباط أمام حائط البراق في القدس الشريف. كان هذا هو الهدف الذي وضعه الشهداء نصب أعينهم على الرغم من صعوبته، ذلك بأن الجيش الصهيوني لا يُعلِم حتى عناصره بموعد الاحتفال إلاّ قبل ثلاثة أيام من موعده، ولا يسمح لأي منهم إلاّ بدعوة ثلاثة من أقربائه فقط، ويتم في يوم الاحتفال إغلاق المنطقة بأسرها.

حين التقى الشهداء بالإخوة عبد الناصر وطارق الحليسي وإبراهيم عليّان في عمّان تبادر إلى ذهنهم هذا الهدف، فهؤلاء الأبطال يعرفون هذه المنطقة جيداً. ومنذ تلك اللحظة

بدأ الإعداد للعملية، فجرى استطلاع الهدف عدة مرات، وتبيّن أن هذا الاحتفال يصادف وقوعه في يوم أحد، وأن أفضل طريقة لمهاجمته هي إلقاء قنابل يدوية على منطقة الاحتفال من أحد أسوار القدس القريبة. ولذا جرى التدرّب على التسلل إلى تلك المنطقة عدة مرات، وبقيت مشكلة تدريب المجموعة التي لا تمتلك أي خبرة عسكرية سابقة على إلقاء القنابل اليدوية، إذ بعد الخروج من بيروت وصعوبة وصول أبناء فلسطين المحتلة إليها، لم يكن لدى أبو حسن وحمدي ومروان سوى خيار واحد هو تدريبهم في الصحراء الأردنية مع ما يحمل ذلك من مخاطر. لكن بقيت هنا مشكلة تزويدهم بالقنابل اليدوية، ونظراً إلى أهمية الهدف، قرروا تجاوز ما هو معمول به من استخدام نقاط ميتة لتسليم السلاح المطلوب، وهي قاعدة تقتضي بأن يقوم أحد الأشخاص بوضع السلاح في مكان، ثم تتسلمه الجهة المعنية فيما بعد، وهي عملية آمنة تضمن سلامة الطرفين اللذين لا يعرف أحدهما الآخر، إلاّ إنها تتطلب وقتاً، فضلاً عن أن السلاح قد يضيع أو يصعب العثور عليه. لذا قرر الشهداء الثلاثة أن يتم تسليم القنابل مباشرة من أحد الأبطال الذي سبق أن نفّذ في سنة ١٩٨٣ عملية شهيرة في القدس عُرفت باسم عملية "الباص رقم ١٨"، والتي قُتل خلالها عشرات الصهيونيين من دون أن تتمكن قوات الاحتلال من معرفة المنفّذين. وهكذا قام سمير أبو نعمة بتسليم أحد الإخوة مباشرة القنابل اليدوية المخبأة في حقيبة غيتار، لكن قوات الاحتلال تمكنت بعد تنفيذ العملية من إلقاء القبض على المجموعة والتعرف على أبو نعمة واعتقاله ليصبح الآن عميد الأسرى المقدسيين، بعد رفض سلطات الاحتلال الإفراج عنه في صفقات التبادل المتعددة.

اتفق الشهداء مع أبطال العملية على أن يتصلوا هاتفياً في ساعة محددة من كل أسبوع، إذا عرفوا أن هنالك مراسم لتخريج الضباط، برقم كابينة هاتف في أحد شوارع لندن. والشخص الذي ينتظر الاتصال هو رمضان شلّح، أمين عام حركة الجهاد الإسلامي حالياً، الذي كان يقيم في لندن في تلك الفترة، وكان عليه أن يقود السيارة أسبوعياً أكثر من ٨٠ كيلومتراً ليصل إلى تلك الكابينة وينتظر الاتصال الموعود الذي جاء أخيراً في ١٥ / ١٠ / ١٩٨٦، ومضمونه أن "عرس شقيقته سيكون هذه الليلة."

أوقف أبطال العملية سيارتهم قريباً من المكان، ومشوا في اتجاه الهدف حاملين حقيبة الغيتار، ونفذوا العملية بكل دقة، ملقين القنابل اليدوية التي في حيازتهم على تجمّع من ضباط وضباط صف لواء غفعاتي، ليعودوا وينسحبوا بسلام وسط حالة من فوضى سادت بين الصهيونيين. وقد اعترف العدو بوقوع نحو ٨٠ جندياً بين قتيل وجريح، وتشير روايات مقدسية إلى أن عدد القتلى تجاوز العشرة.

ولاحقاً، وصل بيان إلى مكتب "وكالة الصحافة الفرنسية" في القدس يعلن مسؤولية سرايا الجهاد عن العملية، لكن جهات في "فتح" وفصائل فلسطينية أُخرى تبنّتها أيضاً، بل إن إحدى الجهات التي تبنّت العملية عرضت على الأخ أبو عمار خرائط ومخططات تفصيلية عن العملية لتأكيد أنها المنفّذ، غير أن القدر شاء أن يتعرف أحد المارة على سيارة المنفذين الحقيقيين، فجرى إلقاء القبض عليهم في الشهر نفسه، وأعلن العدو بعد فترة جميع التفصيلات المتعلقة بها.

٢ ـ عطاف بداية العمل الاستشهادي

استمر تنفيذ العمليات العسكرية المحدودة

من زرع عبوة أو إطلاق نار على دوريات، غير أن العمل كان منصباً على عملية نوعية أُخرى تفوق عملية حائط البراق جرأة وتعقيداً، وكان هدفها تفجير مقر رئاسة الحكومة الإسرائيلية بعملية استشهادية تنفّذها الأخت عطاف عليّان.

في سنة ١٩٨٠ تعرفت الأخت عطاف على حمدي سلطان الذي رتب لها الوصول إلى لبنان للتدرب على السلاح. وفي سنة ١٩٨٥ اقترحت عطاف أن تقوم بعملية استشهادية، ومنذ ذلك التاريخ بدأ العمل الدؤوب لترتيب مثل هذه العملية.

قرر الإخوة الشهداء أن هدف العملية سيكون تدمير مقر رئاسة الحكومة الصهيونية في القدس بسيارة متفجرة تقودها عطاف، فبعد أن تم استطلاع المكان جيداً، اكتُشف أن بعض العاملات في هذا المبنى هنّ مجندات يأتين إلى العمل بسياراتهن الخاصة.

بدأت التحضيرات واستمرت عدة أشهر، وجرى اختيار سيارة من النوع الشائع استخدامه من طرف المجندات، وتأمين المتفجرات اللازمة، وتجهيز السيارة وتفخيخها، وتهيئة عطاف للقيام بهذه المهمه.

كانت عطاف من عائلة محافظة، وتضع غطاء رأس، لكن كان عليها في يوم العملية أن تكشف عن رأسها وتتبرج وترتدي زياً قصيراً مثل الذي ترتديه المجندات. ولذلك رُتّب لقاء لعطاف مع أحد كبار العلماء المسلمين وكان شارك سابقاً في تجربة قواعد الشيوخ، فأباح لها ذلك شرعاً، بل شجعها عليه. وكتبت عطاف وصيتها بمساعدة أحد المثقفين والأدباء العرب المتميزين، فجاءت وصيتها قطعة أدبية.

فصّلت عطاف ملابس عسكرية شبيهة بملابس المجندات، وحصلت على رخصة قيادة للسيارات، وأنهت ما يتوجب عليها من تحضيرات، وباتت مستعدة للشهادة.

وقع الاختيار لتجهيز السيارة على المهندس سليمان الزهيري من طولكرم، لكن لم يكن لديه الخبرة الفنية الكافية للقيام بمثل هذه الأعمال، فأُرسل إلى باكستان لتلقّي التدريب الملائم عند عبد الله عزام الذي كان آنذاك مهتماً بالجهاد في فلسطين، بل إن قيامه بتدريب الزهيري كان ربما أحد أسباب اغتياله فيما بعد.

اشترى المهندس الزهيري السيارة، بعد عودته من باكستان، وخبأها في مستودع، وبدأ باستلام المتفجرات بشكل متدرج، فضلاً عن تصنيعه متفجرات أُخرى. وعُيّن موعد للقيام بالعملية، لكن الإخوة الشهداء قرروا تأجيل الموعد بعدما وصلتهم معلومات أن ثمة مصدراً لديه بعض قذائف المدفعية من مخلفات الجيش الأردني في الضفة الغربية، وذلك بهدف إضافتها إلى المتفجرات في السيارة كي يتم تحقيق أقصى النتائج الممكنة. وطلبوا من المهندس الزهيري استلام هذه القذائف وإضافتها إلى العبوة التي سبق أن زُرعت في السيارة، لكن يبدو أن هذا المصدر كان تحت أعين الاحتلال وعملائه، فأُلقي القبض على المهندس سليمان وعلى الأخت عطاف قبل ساعات من التنفيذ، ولم يُكتب النجاح لأول عملية استشهادية كان من المقرر أن تتم على أرض فلسطين.

أثار إعلان العدو بشأن هذه العملية ردات فعل واسعة، ولم يُخفِ الأخ أبو عمار غضبه الشديد من أن يتم الإعداد لعملية بهذا المستوى يُستهدف فيها مقر رئاسة الحكومة الصهيونية من دون علمه وموافقته، إذ إنه كان يدرك أن ثمة خطوطاً حمراً في هذا الصراع، وأن هذا الهدف سيتبعه ردّ على هدف مماثل، لذلك خاطب الأخ أبو جهاد

قائلاً: "إنت عارف دول كانوا حيودونا فين؟!"

قدّر الشهيد أبو حسن قاسم أن مرحلة جديدة بدأت، وتوصل إلى قناعة بأنه بات مكشوفاً أمنياً من خلال وجوده في عمّان، ولم يكن يمتلك لا هو ولا حمدي جواز سفر يتيح لهما السفر عبر المنافذ الرسمية، ولذا قررا أن يغادرا تسللاً عبر الحدود في اتجاه سورية ومنها إلى لبنان حيث سيتمتعا بحرية حركة أكبر. ونصح صديقٌ أبو حسن بأن يغادر هو أو حمدي كلاً على حدة، على أن يتبع أحدهما الآخر بعد فترة زمنية، تحسباً لأي احتمال. غادر أبو حسن برفقة هارون، الفدائي المتمرس على عبور الحدود، وفي سورية اعترضتهما دورية من الهجانة ظنتهما مهربين، وبعد التأكد من هويتهما نُقلا إلى أحد أقبية الاستخبارات السورية حيث تعرضا لتعذيب شديد، وأُفرج عنهما بعد أكثر من ٣ أشهر بعد تدخّل العديد من الأصدقاء.

كان أبو خالد العملة زعيم "فتح الانتفاضة" في انتظار أبو حسن عند خروجه من المعتقل، وحاول إقناعه بالانضمام إلى الانشقاق وتولّي مسؤولية الأرض المحتلة، لكن أبو حسن عرض صيغة للتعاون في داخل الأرض المحتلة رفضها أبو خالد، فمُنح أبو حسن مهلة ٢٤ ساعة فقط لمغادرة الأراضي السورية، وعلى الفور تم ترتيب نقله إلى لبنان بواسطة الشهيد عماد مغنيه.

وفي الأردن عاش الشهيد حمدي متخفياً يخشى اعتقاله بعد انكشاف دوره في عمليتَي البراق وعطاف عليان، أو محاولة اغتياله من طرف العدو الصهيوني.

اتصلت أجهزة الأمن الأردنية بصديق لحمدي وطلبت منه تبليغه بضرورة اللقاء معها، وأنها اتصلت بصديق له كي لا يشعر بالقلق. وفعلاً ذهب حمدي إلى اللقاء، وأُفهم أنه أصبح على رأس قائمة الأهداف الإسرائيلية، وطُلب منه مغادرة البلد بعد أن مُنح جواز سفر.

في تونس، استقبل الأخ أبو جهاد حمدي وأبو حسن بترحاب شديد بعد فترة جفاء استمرت فترة طويلة، فلم يعترض على فكرة سرايا الجهاد لأنه كان يعتبر الكفاح المسلح في فلسطين موضوعاً مقدساً، ولا يتردد في أن يفتح أبواباً واسعة لمَن يستطيع تقديم جهد في هذا المجال، ثم إن الإخوة حافظوا على اتصالهم بالمجموعات الفتحاوية التي كانت معهم في لجنة ٧٧، وسعوا لتطوير عملها. وأبدى الأخ أبو جهاد رغبة في إعادة هيكلة العمل وتطويره في الأرض المحتلة، وكلّف الأخ أبو حسن بأن يُعدّ خطة مفصلة، على أن يكون ضابطاً لعمليات الأرض المحتلة، فوعده أبو حسن بأن يقدم الخطة فور عودته من جولة في الخارج، لكن القادة الثلاثة استشهدوا قبل أن يتم ذلك.

باستشهاد الإخوة أبو حسن وحمدي ومروان بدا كأن تجربة سرايا الجهاد بدأت تتراجع، وكان ثمة احتمال في أن تبقى هذه التجربة إطاراً عسكرياً موحداً للقوى الإسلامية، لكن هذا الاحتمال كان يخالف الواقع الناتج من تشكّل قوى إسلامية منظمة لها أجنحتها العسكرية مثل "عز الدين القسام" التابعة لـ "حماس"، و"سرايا القدس" التابعة لحركة الجهاد (الإسلامي). ولو استمرت تجربة السرايا لكانت تحولت إلى فصيل جديد، وهو ما لم يُرده الشهداء الثلاثة، وحسبهم أن فكرتهم نجحت، ونضجت البذور التي زرعوها عندما التحقت هذه القوى بالكفاح المسلح الفلسطيني.

يبقى أن نسجل أنه خلال الانتفاضة الثانية سار بعض إخوة الشهداء على الدرب ذاته، منطلقين من جوهر الفكرة ذاتها، وواضعين جميع إمكاناتهم وقدراتهم في

خدمة الصراع مع العدو الصهيوني وحشد الطاقات كلها ضده. وأذكر هنا أن الشهيد ميسرة أبو حمدية الذي واكب مسيرة السرايا منذ بدايتها، وكان مفروزاً لتدريب بعض الخلايا الأولى في "حماس"، حُكم عليه بأربعة أحكام بالمؤبد خلال الانتفاضة الثانية لأنه درّب وجهز استشهاديين من "حماس" و"فتح"، وعندما استشهد تسابقت الفصائل جميعها لنعيه والإشادة بمناقبه والاعتزاز بعلاقتها به. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بترول شرق المتوسط: الأبعاد الجيوسياسية

تحرير: وليد خدوري

١٦٣ صفحة ٨ دولارات